

ت. النشر: 30 - 06 - 2025	ت. القبول: 29 - 10 - 2024	ت. الارسال: 27 - 09 - 2024
--------------------------	---------------------------	----------------------------

إمارة باري الإسلامية في الجنوب الإيطالي (226-257 هـ / 841-871 م).

The Islamic Emirate of Bari in Southern Italy (226-257 AH / 841-871 CE).

هوشات سامي . ID

جامعة أم البواقي، الجزائر

houchat.sami@univ-oeb.dz

الملخص:

مهد الصراع الإسلامي المسيحي على أراضي صقلية، الطريق أمام المسلمين للتوغل في البر الإيطالي ورغم صعوبة الوضع، فقد نجح المسلمون في إنشاء إمارات إسلامية بالجنوب الإيطالي، من أبرزها إمارة باري التي استمرت تواجدها مدة ثلاثين سنة، وتعاقد على حكمها ثلاثة أمراء، كانوا في حالة صدام دائم مع المسيحيين بتلك النواحي، أحسنوا استغلال الظروف وانتهزوا الفرص لتثبيت تواجدهم في هذه البيئة العدائية، وترويض ممالك الجوار المسيحية، كما تمكنوا من الحفاظ على الروابط التجارية والحيوية الاقتصادية للإمارة التي كان مجتمعها سيفساء عرقية وبشرية، هذا فضلا عن مساعي أمرائها لتحصيل الإعتراف من الخلافة بإمارتهم وباستقلاليتها عن كل القوى الأخرى.

إن هذه المدينة / الإمارة التي تأسست وسط بيئة معادية تضجّ بالصراعات والدسائس قد نجحت إلى حدّ ما في تصدير صورة عن الحكم مغايرة للنمطية التي سادت الجنوب الإيطالي آنذاك، أبرزت هذه الصورة العبقريّة والتميز الحضاري للمسلمين الوافدين، ومن مرام هذه الدراسة توضيح مدى تسبب حالة التشظّي والتشرذم ونزاعات المسيحيين مع بعضهم البعض في التمكين للمسلمين من بسط هيمنتهم بشكل طارئ على باري وتوجيه مجريات الأحداث من خلالها، هذا التساؤل المحوري الذي صحبته عدة تساؤلات فرعية لتجلية غوامض الأحداث المرتبطة بتاريخ هذه الإمارة، تتمحور حول الآليات التي من خلالها نجح المسلمون في إرساء دعائم حكمهم، وبدائل الحكم التي قدّموها، وعن تظافر الجهود الصليبية وتوحيد صفوفهم للتخلص من هذه الإمارة الإسلامية.

استعنت على هذا العمل بعدد من المصادر والمراجع، ككتاب فتوح البلدان لمؤلفه أحمد بن يحيى البلاذري، الذي عاصر فترة نشوء هذه الإمارة، بالإضافة إلى ما ذكره ابن الأثير عنها في مؤلفه الكامل في التاريخ، أما ما كتبه ميكيلي أماري في مؤلفه الضخم تاريخ مسلمي صقلية فاحتوى على معلومات أكثر شمولية وتفصيل، في ظل استعانتة لتدوين عمله بأصول لاتينية وعربية جد مهمة تعود لتاريخ تلك الحقبة، هذا بالإضافة إلى ما دونه محمد الطالبي من معلومات حولها في عمله الموسوم بالدولة الأغلبية – التاريخ السياسي- وما أورده أحمد عزيز في مُنجزه المعنون بتاريخ صقلية الإسلامية، وأغلب هذه المراجع ذكرت محطات من تاريخ هذه الإمارة عرضا وليس من باب التركيز على دراستها.

رغم النزر القليل من المعلومات الذي امتلكناه حول هذه الإمارة فإننا عمدنا إلى التنقيب عن تاريخها مع إعمال النقد والتحليل للمادة التاريخية المتوفرة تجنباً للوقوع في الزلل، أما عن أبرز مُخرجات هذه الدراسة فكانت أنّ الصراعات المسيحية هي من فتحت منفذاً ساعد المسلمين للتوغل والاستقرار بالجنوب الإيطالي، بعد نجاح "خلفون البربري" في السيطرة على مدينة باري وإنشاء إمارة إسلامية بها، أثخن أمراؤها في الممالك المسيحية المُجاورة لها واجبروهم في كثير من المحطّات على الرضوخ والتبعية، سعت لترسيخ جذور الإسلام وأركانها بالمنطقة، كما لم تعمل على كسب ود أي قوة سياسية أخرى ياستثناء الخلافة العباسية، وفي ظل المساعي المسيحية لاستئصال هذا الكيان الطارئ، حُشدت القوى وأبرمت الإتفاقيات بين الفرنجة والبيزنطيين وفُرض حصار رهيب على إمارة باري، كل هذا لم يكن ليقتضي عليها لولا ذلك الخذلان الرهيب وإنعدام أدنى أشكال الدعم الذي تعرضت

له باري من طرف القوى الإسلامية المجاورة، على غرار الدولة الأغلبية التي وقفت موقف المتفرج من تلك الحملة الصليبية المسعورة ضد الإمارة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: جنوب إيطاليا، إمارة باري، خلفون البربري، مفرج بن سلام.

Abstract:

The Christian-Muslim conflict in Sicily paved the way for Muslim expansion into the Italian mainland. Despite challenging conditions, Muslims managed to establish Islamic emirates in southern Italy, most notably the Emirate of Bari, which lasted for thirty years under the rule of three successive emirs. These rulers were in constant conflict with local Christian forces but skillfully exploited circumstances to consolidate their presence, subdue neighboring Christian kingdoms, and maintain vital economic and trade networks. The emirate's society was ethnically diverse, and its rulers sought recognition from the caliphate, asserting their independence from other powers.

Established in a hostile and politically volatile environment, the Emirate of Bari projected an alternative model of governance, distinct from prevailing norms in southern Italy. It reflected the ingenuity and cultural sophistication of its Muslim rulers. This study seeks to explore the role of Christian fragmentation and internal conflicts in facilitating the Muslims' temporary dominance over Bari and shaping the course of events in the region. Key questions center on the mechanisms through which Muslims secured their rule, the governance alternatives they introduced, and the coordinated Christian efforts that ultimately led to the emirate's downfall.

This research draws on several historical sources, including *Futuh al-Buldan* by Ahmad ibn Yahya al-Baladhuri, a contemporary of the emirate's rise, and Ibn al-Athir's *Al-Kamil fi al-Tarikh*, which provides additional insights. Michele Amari's *History of the Muslims of Sicily* offers a more comprehensive account, utilizing both Latin and Arabic sources from the period. Further relevant details are found in Mohamed Talbi's *The Aghlabid State: A Political History* and Ahmad Aziz's *History of Islamic Sicily*. However, most of these sources discuss Bari's history only incidentally rather than as a primary focus.

Despite the limited information available on the emirate, this study critically examines its history through careful analysis of existing historical narratives to avoid inaccuracies. The key finding is that internal Christian conflicts enabled Muslim expansion into southern Italy, culminating in Khalfun al-Barbari's successful establishment of the Emirate of Bari. The Muslim rulers launched incursions into neighboring Christian territories, compelling them into submission at various points. The emirate sought to entrench Islam in the region and maintained allegiance solely to the Abbasid Caliphate. However, faced with mounting Christian opposition, an alliance between the Franks and Byzantines led to a relentless siege of Bari. This alone might not have caused the emirate's fall, but the absence of support from neighboring Muslim states, particularly the Aghlabids, who remained passive in the face of the Christian campaign, ultimately sealed its fate.

Keywords : Southern Italy, the Emirate of Bari, Khalfoun the Berber, Mufarrij Ibn Salem.

المؤلف المرسل: هوشات سامي، الإيميل: houchat.sami@univ-oeb.dz

مقدمة :

مدينة باري Bari، أو مدينة بارة مثلما ورد ذكرها في المصادر العربية الإسلامية، من مدن إيطاليا الجنوبية، نجح المسلمون في السيطرة عليها وإخضاعها لنفوذهم ردحا من الزمن، وجرت على أرضها وبالقرب منها عديد المعارك والحروب الطاحنة بين المسلمين والمسيحيين، ومما لا شك فيه أنّ نجاح المسلمين في إنشاء إمارة لهم في عمق التراب الإيطالي يُعتبر إنجازا يُحتفى به، خاصة وأنّ هذا الأمر لم يتم إلا في أعقاب جهود كبيرة بُذلت من قبل الفاتحين، وهذا العمل يسعى لتوضيح الكيفية والمراحل التي بفضلها نجح المسلمون في الوصول لحكم هذا الإقليم، وأبرز التبعات التي انجرت عن هذا الحدث، خاصة وأنّ إقليم باري حتى يصله المسلمون كان لزاما عليهم اجتياز البحر المتوسط وصولا إلى جزيرة صقلية Sicile، هذه الجزيرة التي يفصل بينها وبين البر الإيطالي من ناحيته الغربية مضيق مسينا Messina، وبالتالي فالمشوار لم يكن هينا، كما أنّ البيئة التي ظهرت بها هذه الإمارة الإسلامية تتواجد في عمق الأراضي المسيحية، فضلا عن كونها تاريخيا معقلا لإحدى أعنى الإمبراطوريات في أوروبا والعالم.

ومن أبرز الدراسات السابقة التي تطرقت إلى الموضوع أذكر أحمد توفيق المدني وكتابه المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، والذي أشار إلى النفوذ الإسلامي في باري بنوع من الإيجاز، وعلى الرغم من قيمة المعلومات التي أوردها عن هذه الإمارة فإنه وقع في بعض الأخطاء من ذلك أنه أغفل ذكر فترة حكم واحد من أهم أمرائها، ومن الدراسات السابقة كذلك أذكر كتاب محمد الطالبي المعنون بالدولة الأغلبية -التاريخ السياسي- والذي ذكر فيه عدد من محطات تاريخ هذه الإمارة، وهذا في خضم حديثه عن صراع الأغلبية مع المسيحيين في أعقاب استقرارهم بجزيرة صقلية، حاله كحال أحمد عزيز في كتابه تاريخ صقلية الإسلامية بالإضافة إلى بعض الدراسات الأخرى التي ذكرت إمارة باري بإيجاز في خضم حديثها عن تاريخ صقلية والتواجد الإسلامي فيها.

وعليه، تتمحور إشكالية هذه الورقة العلمية على مدار الملاحظات والعلامات التاريخية التي تُحيل إليها الوثائق العُمدية التي تعج بها كتب التاريخ وأوراقه، إن هذه المدينة /الإمارة مدار البحث كان لها صدق في بيان العبقرية الإسلامية للفتاحين ومدى تلازم الظروف السياسية والاقتصادية التي مكنت للأمراء المسلمين أن تكون لهم إضافتهم الحضارية داخل بيئة تضج بالصراعات والحروب والمكائد.

و تأسيسا على ما تم، سنعمل في هذه الدراسة على فهم تلك العلاقات التلازمية والسببية بين صراع المسيحيين مع بعضهم وتمكينهم لعدو خارجي أصبحت له المكانة والغلبة، بل أصبحت له فاعلية تاريخية أشارت إليها مصادر التاريخ المختلفة، فإلى أي مدى أسهمت تلك الأوضاع السياسية في النشوء الطارئ لإمارة باري؟

هذا السؤال المركزي سيجر معه أسئلة ثانوية تُعصده لممارسة مزيد من التفسير التاريخي وتحقيق الكفاية التفسيرية لهذه الحادثة التاريخية، فكيف تمكّن الأمراء المسلمون في ظل تلك الأوضاع الهشة من توطين حكمهم؟ بل كيف استطاعت إمارة باري أن تقدم نفسها نموذجا للحكم وممارسته؟ يختلف عما يُحيط به من أنظمة سياسية، وكيف ساعد هذا الوضع الطارئ في توحيد قوى المسيحيين لإسقاطه؟

ومن أبرز المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها لإنجاز هذا العمل أذكر كلا من أحمد بن يحيى البلاذري وكتابه فتوح البلدان والذي أورد بإيجاز بعض المعلومات عن تاريخ هذه الإمارة وحكامها وبعض منجزاتهم، خاصة وأنه عاصر كل فترات هذه الإمارة زمنياً وإن كان بعيد عنها جغرافياً، بالإضافة إلى ما أورده ابن الأثير عن تاريخ هذه الإمارة في المجلد السادس من مؤلفه الكامل في التاريخ، والملاحظ أنّ ما كتبه لم يزد عمّا أورده البلاذري من معلومات، ومن الدراسات التي توسعت نوعاً ما في إيراد تاريخ هذه الإمارة ميكيلي أماري في المجلد الأول من كتابه تاريخ مسلمي صقلية، أين أورد معلومات لا توجد في غيره خاصة وأنّه نجح في الوصول والإطلاع على مصادر أصلية لاتينية بالإضافة إلى الكتابات العربية عن هذه الأحداث وهو الأمر الذي لم يتح لغيره، وهو ما جعل عمله يفوق قيمة أعمال غيره.

1. الفتح الإسلامي لصقلية :

المعروف أنّ جزيرة صقلية فتحت خلال فترة حكم "زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب"، على عهد الخليفة "المأمون بن هارون الرشيد"، حيث كلّف زيادة الله جيوشه بقيادة القاضي والفقير "أسد بن الفرات" بالزحف نحو الجزيرة للسيطرة عليها، وهو ما نجح فيه المسلمون على الرغم من التفوق العددي لجيش الصقليين، وعلى الرغم من استشهاد قائد الجيش أسد بن الفرات أثناء حصار مدينة سرقوسة سنة 213هـ/ 828م، إلا أنّ المسلمون نجحوا في افتكاك الجزيرة من المسيحيين وظلّت تحت حكمهم زهاء الثلاث قرون حتى سنة 540هـ/ 1145م، أين اضطر المسلمون إلى الجلاء عنها (ابن وردان، 1988: 329).

هذا وتجب الإشارة إلى أنه كانت هناك محاولات إسلامية من قبل لغزو صقلية، ترجع إلى فترة حكم "معاوية بن أبي سفيان" تحت إمرة "معاوية بن حديج الكندي"، الذي تولى إفريقية من قبل معاوية ثلاث مرات (المالكي، 1994: 92-93)، وتوالت الغزوات الإسلامية على صقلية والتي نجح من خلالها المسلمون في الحصول على الغنائم والأسرى (المراكشي، د- ت: 111-112)، إلا أنهم فشلوا في السيطرة عليها فعلياً حتى عهد الأغالبة وحملة "أسد بن الفرات" السالفة الذكر، والتي نتج عنها السيطرة على مدن الجزيرة تباعاً وإخضاعها.

إنّ عملية الفتح الإسلامي لصقلية كانت مسبقة بجملة من التطورات بالمنطقة، من ذلك ما حدث سنة 211هـ/ 826م، حينما عمد إمبراطور الروم بالقسطنطينية إلى تعيين شخص يُدعى قسطنطين والذي كان في أصله بطريقاً، حاكماً على جزيرة صقلية، والذي عمد إلى تسيير حملة عسكرية بقيادة بحار رومي يُدعى فيبي - إبوفيموس- لغزو إفريقية، الأمر الذي نتج عنه سبي الكثير من المسلمين ونهب أموالهم، وهو الأمر الذي أثار امتعاض الإمبراطور نفسه لإدراكه أنّ مثل هذا العمل المتهور سيكون له عواقب وخيمة على العلاقات الإسلامية البيزنطية، وسعياً منه لتدارك الموقف فقد طلب من قسطنطين حاكم صقلية القبض على قائد الاسطول فيبي لمحاسبته¹، وهو الأمر الذي وصل إلى فيبي فتمرد مع أصحابه وأتباعه، وسيطر على مدينة سرקوسة - سرقوسة-

¹ - هناك من أرجع غضب الإمبراطور من فيبي إلى أمر آخر وهو قيام البحار باغتصاب إحدى الراهبات والتزوج منها بالقوة، مما دفع بأهلكها للتظلم لدى الإمبراطور، الذي طلب من قسطنطين التحقيق في الحادثة ومعاقبة قائد الأسطول في حال ثبات التهمة

وهي إحدى مدن جزيرة صقلية، وتحارب مع قسطنطين وانتصر عليه وعلى جيوشه وتمكّن من قتله، ثم نادى بنفسه ملكاً على صقلية وشرع في تعيين أعوان له لتسيير شؤون الجزيرة، وقد تمرد عليه أحدهم ويدعى بلاتة الذي تحالف مع ابن عمه ميخائيل حاكم بلرم Palerme آنذاك ونجح كلاهما في دحره وسيطروا على مدينته سركويزة، مما ألجأ فيمي لطلب العون من زيادة الله الأغلب (ابن خلدون، 2000 : 235، 254)، وأغراه بغزو الجزيرة وإعانتته ضد خصومه مع التزامه بالولاء والتبعية والطاعة للأغلبية مع دفع الجزية، فكانت الحملة التي نتج عنها فتح صقلية (إسماعيل، 2000 : 149)، هذا الفتح الذي لم يكتمل إلا بعد مدة طويلة وجهود مُضنية، أصبحت عقبا صقلية منطقة إسلامية يُعَيّن حاكمها المتواجد مقره بمدينة بلرم من قبل أمير القيروان الأغلب.

1.1 اجتياز القوات الإسلامية لمضيق مسينا:

السعي الإسلامي بقيادة الأغلبية من أجل السيطرة الكاملة في صقلية اصطدم بالنفوذ البيزنطي المتواجد بها، الأمر الذي اقتضى من المسلمين العمل على التخلص من كل مراكز النفوذ ومن كل القواعد البرية والبحرية البيزنطية المنتشرة عبر مختلف ربوع الجزيرة وهذا ما يُفسّر سير الفتوحات البطيء، ونظراً لأهمية مدن ومناطق باري Calabre ورجو Reggio، والتي كانت تتواجد بها مراكز وقواعد بحرية بيزنطية، فقد كان لزاماً على الجيوش الإسلامية العمل على التخلص من كل تهديد أو خطر قد تُسببه (مورينو، 1968 : 11)، وهذا لم يكن ليتم دون عبور مضيق مسينا نحو البر الإيطالي، المعروف في المصادر الإسلامية باسم الأرض الكبيرة (ابن الأثير، 1987 : 67) أو البر الطويل (كرد، 2017 : 229).

وعمد المسلمون في أعقاب سيطرتهم على أي منطقة من مناطق صقلية، وبهدف تأمينها وضمان تبعيتها وخضوعها إلى ترك حاميات عسكرية بها، وفي حدود سنة 225هـ/ (11 نوفمبر 839م حتى 29 أكتوبر 840م) كان المسلمون قد أتموا فتح كالابريا، وهاجموا منطقة بوليا Pouille كما قامت الجيوش الأغلبية بمهاجمة باري لكنهما اضطرت إلى التراجع عن هذه المناطق، وفي السنة الموالية اصطدم الأسطول الإسلامي بأهل فينيسيا Venice وقواتها وألحق بهم خسائر فادحة، وكان من أبرز نتائج هذه الاشتباكات بين الطرفين الإسلامي والمسيحي بهذه المناطق، أن بدأت تتوافد على أراضيها أعداد لا بأس بها من المحاربين ومن المرتزقة، الذين كانوا على أتم الاستعداد للقيام بأي مهمة تُوكل لهم وتخدم مصالحهم، حيث يبدو أنّ ولائهم كان لمن يدفع أكثر أو لمن يعرض عليهم أكثر. في الغالب كان هؤلاء الوافدون للاستزاق من هذه النزاعات قد أقبلوا على المنطقة من أرجاء مختلفة فكان منهم الأفارقة والكريتيين وحتى من صقلية ذاتها، وترجع بدايات توافدهم إلى سنة 830م ومع حلول سنة 839م، استقوت شوكتهم أكثر وخدمتهم الأوضاع المضطربة حتى أنهم نجحوا في إنشاء مستوطنات صغيرة مستقلة على البر الإيطالي، واتخذوا لأنفسهم ألقاب على غرار لقب السلطان ولقب صاحب، والذي أورده عدد من الكتاب المسيحيين تحت اسم "سابا" والذي يبدو بأنه ليس سوى تحريف للقب صاحب (أماري، 2003 : 219-220).

ضده، أنظر (محمود إسماعيل: الأغلبية (184-296هـ) - سياستهم الخارجية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط 3، 2000م، هامش ص 149).

وفي ظل كل هذه المعطيات كان الصراع مُحتمداً في إقليم لومبارديا² Lombardia سنة 839م بين المسيحيين أنفسهم، وتحديدًا في إمارة بنفنتو (طرخان، 1966 : 215) Benvento، وهذا في أعقاب وفاة حاكمها سيكار (المدني، 1978 : 146) حيث تنافس على السلطة بها تياران، أحدهما يقوده "راديلكي" Radelchis الذي انزعج كثيرا من اعتداءات غريمه المدعو "سيكونولفو" Sikenolf الذي انتزع منه بالقوة بعض المناطق التابعة له على غرار كلابريا Calabre بالإضافة إلى أجزاء أخرى، وبسبب هذا النزاع التجأ كلا الطرفين للبحث عن سند يستقوي به، وعليه فقد ارتعى أحدهما في أحضان المسلمين ونعى هنا راديلكي (أماري، 2003 : 421)، في حين التجأ غريمه إلى البحث عن الدعم والسند من إسبانيا وكرت (طرخان، 1966 : 215)، هذا الأمر مهّد لفتح المسلمين لمدينة باري وسرّع من وتيرة هذا الحدث، تجدر الإشارة إلى أنّ الصراع بين راديلكي وسيكونولفو استمر إلى غاية سنة 849م، أين تصالحا واتفقا على تقسيم المناطق المتنازع عليها إلى إقليمين القسم الشرقي منها عُرف بإسم إمارة بنفنتو، والقسم الغربي منها بإمارة سالرن (كرد، 2017 : 240)، وفي هذا الوقت كان خلفون البربري قد ظفر بإقليم باري واستفرد بحكمه.

وخلال فترة الفتح الإسلامي لصقلية أي منذ 826م، ظلت مدينة باري بعيدة عن التهديد الإسلامي غير أنّ مجريات الأحداث تغيرت بشكل كبير في أعقاب تغيير المسلمين لاستراتيجيتهم في الجزيرة، وتوجههم بالفتوحات نحو شرقها، ونجاحهم في السيطرة على مدينة مسينة Messine الساحلية، الأمر الذي فتح أمامهم باب الهيمنة على مجاز أو مضيق مسينة، الفاصل بين صقلية والجنوب الإيطالي³، وهكذا اشترأت أعناق المسلمين نحو البر الإيطالي الكبير، وعليه فقد أصبح البحر الفاصل بين إفريقية وصقلية وكذلك المضيق الفاصل بين صقلية والجنوب الإيطالي تحت الهيمنة الإسلامية الأغلبية، مما يعني أنّ البر الإيطالي أصبح مكشوفاً أمامهم، وباستغلال النزاعات والصراعات المحلية لصالحهم نجح المسلمون في التوغل إلى الجنوب الإيطالي.

2.1 تحالف راديلكي مع خلفون البربري لمواجهة غريمه سيكونولفو:

كانت مدينة باري خاضعة خلال هذه الفترة للبيزنطيين⁴ يحكمها لصالحهم شخص يحمل إسم باندوني، وصفه أماوري بأنه وكيل أراضي باري، وكان راديلكي تابعا له، وهو من قام بالاستنجاد في صراعه ضد سيكونولفو بأحد القادة المتنفذين، والذين نجحوا في إنشاء مستوطنات لهم بصقلية وتكوين عصابة وقوة، ولم يكن هذا القائد سوى خلفون البربري، والذي أخطأ عدد من الكتاب الإيطاليين في إسمه فذكره بعضهم بتسمية "كالفون"

² - إقليم لومبارديا Lombardia: تسميته نسبة إلى تلك المملكة التي أنشأها الغزاة اللومبارديون بالأراضي الإيطالية ما بين 568-774م، والتي في أعقاب سقوطها انقسمت إلى مجموع دوقيات هي بنفنتو، كابو، سالرن، في إيطاليا الجنوبية، وهي تعرف مجتمعة عند اليونان باسم لابلوكيا (بوليه أو ابوليه)، وهو تضم اليوم مدن وأقاليم ميلان، بركامو، بريشيا، كومو كريمونا، مانتوفا، بافيا، سونديريو وفاريسي، للمزيد أنظر (محمد كرد علي: المرجع السابق، ص- ص 239-240).

³ - عن هذه المناطق، أنظر الملحق رقم 01.

⁴ - كانت للمسلمين غزوات ضد مدينة باري، على غرار غزوة أحد موالي الاغلب والذي ورد باسماء مختلفة فهو عند ابن الأثير حياه، وعند البلاذري جبلة، والذي لم يستطع أن يفتحها، وقع هذا الغزو في حدود سنة 225هـ/839م، أنظر (ابن الاثير: المصدر السابق، ج 6، ص 67؛ البلاذري: المصدر السابق، ص 328؛ ميكيلي أماري: المرجع السابق، ص 419).

وذكرته مخطوطات إيطالية باسم "ألفونس" وهي تسمية غير صحيحة (أماري، 2003 : 421)، ومما ورد من معلومات عن خلفون أنه كان من موالي ربيعة (البلاذري، 1987 : 328)، وهذه المعطيات تُحيلنا إلى عدد من الأمور أبرزها أنّ خلفون كان قائدا ذائع الصيت وله عُصبة ومنعة وقوة تُتيح لمن استنجد به مجابهة خصومه وردعهم حتى وإن كان لا توجد إشارات تبين لنا مقدار ما كان معه من أتباع وجند ومراكز استقرارهم وتواجدتهم، فضلا على أنّ هذه الزعامة التي تشكّلت بالأراضي الصقلية كانت على استعداد للدخول في أي صراع يحدث بالمنطقة في حال ما إذا تم طلب خدماتها ودفع المقابل اللائق.

وباستغلال واستثمار الصراعات المحلية لصالحهم نجح المسلمون في التوغل والتسلل إلى مدينة باري، والسيطرة عليها ثم التوسع في عدد من المناطق المجاورة وتكوين حكم وإمارة إسلامية هناك، استمر وجودها مدة ثلاثين سنة تقريبا من 226-257هـ/841-871م (طرخان، 1966 : 215)، وذكر كل من البلاذري وابن الأثير أنّ هذا الفتح تمّ في أول خلافة المتوكل على الله (ابن الأثير، 1987 : 67)، أما عن كيفية الفتح فإنّ ما وصلنا من معلومات عنه هو فقط ما ذكره أماوري في كتابه تاريخ مسلمي صقلية والذي استقاه من الكتابات المسيحية.

2 - فتح مدينة باري:

قبل سرد الوقائع المذكورة حول فتح المدينة يجب أن نُنوه إلى وجود إشكال أو حدوث ما يُمكن أن نسميه قفز على الأحداث التاريخية، فبعد أن ذكر أماوري طلب راديلكي بإسم وكيل أراضي باري العون من خلفون البربري ضدّ سيكونولفو، كما سبق ذكره، فإنه انتقل مباشرة إلى ذكر إستعدادات "باندوني" لمواجهة خطر خلفون المحتمل على مدينة باري (أماري، 2003 : 421) وهذا يُحيلنا إلى طرح عدد من علامات الإستفهام، فمن المفروض أنّ كل من باندوني وخلفون حلفاء، ثمّ ولأنّ باقي الأحداث تؤكد على بقاء كل من راديلكي وخلفون على وفاق، فإنّ عداوة باندوني مع خلفون البربري تطرح عديد التساؤلات، فهل تغيّر منحنى العلاقات راجع إلى احتمالية حدوث شرخ أو تضارب في المصالح بين الطرفين؟ أو ربما قد كان سببه عدم رضا الإمبراطور أو ربما الكنيسة ورجال الدين عن هذا الحلف؟ لعله يرجع إلى تخوف باندوني من إستغلال خلفون ومن ورائه المسلمين لقوتهم والتوسع أكثر في الأراضي الإيطالية؟ تبقى هذه مجرد احتمالات وتخمينات قد يكون أحدها هو السبب، أو قد يكون السبب أمر آخر غائب عنا.

ولأنّ مدينة باري أو بارة مثلما وردت في المصادر الإسلامية مدينة ساحلية (البلاذري، 1987 : 328)، فقد كانت مُحصنة بأسوار تحميها من الهجمات البحرية، ولأنّ وكيل الإمبراطور البيزنطي عليها كان يتوقع ويتربص بهجوم خلفون وقواته، فقد عمد إلى القيام بخطوات استباقية على أمل صد أي هجوم ورد أي خطر يترصدها، فعمد باندوني إلى إنشاء معسكرات لجنده على طول الساحل المقابل للمدينة، كما كثّف من تواجد الجند والعساكر عند الأسوار وفوقها، وهذه الاجراءات يُفهم من خلالها أنّ وكيل المدينة كان يهدف لمجابهة الخصوم خارج الأسوار، لكن يبدو أنّ خلفون البربري وقواته قد أخذوه على حين غرة بحيث لم تنفع تحصيناته واستعداداته، هذا ما نستشفه من وصف الهجوم لأماوري حين قال : « وفي ذات ليلة فوجئ أهل باري بتلك

الجماعات..» (أماري، 2003 : 421) مما يعني أنّ عنصر المفاجئة كان عاملاً أساسياً في نجاح الهجوم، وقد كانت ليلة الهجوم ماطرة ومُظلمة، كما تمّ وصف الغزاة بالشياطين (الطالبي، 1995 : 518).

هنا نجدنا أمام إشكال آخر فوصف أماوري لجيش خلفون بالجماعات يُثير التساؤل، خاصة إذا علمنا أنّ كل من البلاذري وابن الأثير قد ذكرا فتح هذه المدينة المحصنة بإيجاز، فهل معنى هذا أنّ وصف قوات خلفون البربري بالجماعات غرضه التقليل من قدرها؟ وهذا يبدو جد مُستبعد بدليل ما أحرزته من نصر، أم هل مردّه الأساسي إلى قلة تعدادها مقارنة بجيش باندوني؟ ثمّ كيف يُمكن لجماعات أن تقضي على جيش منظم وتُسيطر على مدينة مُحصّنة بأكملها بهذه البساطة؟ وعليه فإنّ وصف الجماعات قد لا يكون صحيحاً، خاصة إذا وضعنا احتمالية حدوث تحالف بين خلفون وغيره من القادة الذين استقروا بمختلف نواحي صقلية وإيطاليا وانشأوا مستوطنات صغيرة مستقلة بها خلال الفترة من 830 حتى 839م كما ذكرنا سابقاً، بالإضافة إلى نقطة جوهرية أخرى وهي قضية التضامن بين هذه الجماعات الساعية للاستزاق والبقاء، وحتى تلك التي يجمعها ويُحركها الوازع الديني تحت مُسمى الجهاد.

مما نستقيه من كلام أماري عن ليلة فتح خلفون البربري لمدينة باري، فإنّ عنصر المفاجئة كان سلاحاً حاسماً، كما أنّ أفراد القوة الغازية كانوا على قدر معتبر من البأس بحيث قضوا على كل من واجههم، أما عن لباسهم فيبدو أنه لم يكن موحداً كما هو الحال في الجيوش النظامية، وقد ورد في وصف جماعات خلفون بأنّها كانت حافية وشبه عارية الصدر، هذا الوصف قد يكون مبالغاً فيه، ويُحيلنا لأمرين، أولهما أنّ خلفون يكون قد تعمّد تخفيف لباس الحرب على جنوده لغرض السرعة والتي تتماشى لزماً مع عنصر المفاجئة الذي اعتمده في هجومه هذا أولاً، أما الأمر الثاني المحتمل فقد يكون هذا الوصف نوع من الإزدراء والإحتقار الصُوري الذي تشكّل في مخيال الفرد الأوربي تجاه الجندي المسلم جرّاء عدد من العوامل وعبر عديد محطات الصراع، ومن خلال هذا الوصف يُمكننا أن نستنتج بأنّ غزو خلفون لمدينة باري قد تم صيفاً أو خلال فترة ارتفاع درجات الحرارة.

أما عن تسليح قوات خلفون حسب الكتابات المسيحية فتم وصفه بالتسليح الرديء، قوامه الاساسي هو الرماح التي يُمسكها ويحارب بها مُعظمهم، والتي كانت مصنوعة من إحدى أنواع الخشب وهو الغاب الهندي، ويبدو أنّ هذا النوع من الرماح لم يكن مألوفاً لدى سكان المدينة وجنودها مما دفع بهم لإستغرابها (أماري، 2003 : 421)، إنّ ما هو أكيد أنّ خلفون وقواته نجحوا في السيطرة على مدينة باري المحصنة في ليلة واحدة، مما يسمح لنا برفض الصورة التي حاول المسيحيون نقلها أو رسمها عن جيش خلفون، بأنه جماعات.. الكلمة التي تُوجي بإنعدام التنظيم والتنسيق والوحدة.. وبأنّ تسليحهم كان رديئاً.. إذن كيف استطاعوا هزيمة جند مُجهز بأفضل طريقة ممكنة، فقط من خلال رماح من خشب؟ وغيرها من نقاط، يبقى الاكيد أنّ المعلومات حول هذا الفتح وهذه الإمارة الإسلامية معلومات شحيحة جداً.

وفي أعقاب دخول الجيوش الإسلامية الغازية للمدينة عمدوا للتخلص من كل المقاومين (الطالبي، 1995 : 519) والمعارضين، ويبدو أنّ عمليات نهب واسعة قد حدثت بالمدينة كذلك، كما وقع في يد جند خلفون الكثير

من الأسرى، كان من ضمنهم وكيل المدينة من قبل البيزنطيين والذي تولى مهمة الدفاع عنها ومحاولة حمايتها ألا وهو باندوني، والذي يبدو أنه حاول الدفاع عن الأهالي وحقوقهم وحث خلفون وقواته على إحترامها، الأمر الذي نتج عنه رمي باندوني من قبل أسريه في البحر رفقة عدد من أتباعه (أماري، 2003 : 421).

3- حكام مدينة باري الإسلامية:

تعاقب على حُكم هذه الإمارة ثلاثة أمراء خلال الفترة الممتدة ما بين (226-257هـ / 841-871م):

- المؤسس خلفون البربري (226-232هـ / 841-847م): ذكر بأنه من موالي قبيلة ربيعة، وهو الذي تم فتح المدينة تحت قيادته سنة 841م (طرخان، 1966 : 215)، كان من المغامرين المسلمين الذين استغلوا اضطراب الأوضاع في صقلية وجنوب إيطاليا، واستقر ببعض نواحيها مع رجاله وأتباعه، ومن الأرجح أنه البربري الوحيد الذي نجح في تأسيس إمارة مستقلة هناك (Golvin, 1991 : 2)، حيث بعد أن هزم باندوني وجنوده رفقة حليفه راديلكي، اضطر هذا الأخير لترك مدينة باري تحت حكمه وإمرته، حيث لم يستطع فعل أي شيء لجعلهم يخرجون من المدينة خاصة وأنه هو الذي قام بطلب العون منهم، كما اضطر راديلكي لنهب ثروات الكنائس حتى يتمكن من الوفاء بالتزاماته المالية لخلفون وجنوده (أماري، 2003 : 421-422)، وبهذا دانت المدينة لحكم خلفون ومن معه وأصبح خلفون أول حاكم مسلم لها، ونظرا لأهمية موقعها الاستراتيجي فقد جعل منها قاعدة لمراقبة وغزو المناطق المجاورة (طرخان، 1966 : 215).

استمر الحلف الذي أبرمه خلفون مع راديلكي، الذي خطط لهجوم قاده ابنه "آرسو" مع خلفون ضد قلعة كان أو كانوزا، التي كانت من ممتلكات غريمه سيكونولفو، الذي اصطدم بهم قريبا ورفض تسليمها والانسحاب، ونجح في إلحاق هزيمة نكراء بجيش خلفون وآرسو، نتج عنها مقتل أغلب جنودهما، وتمكن خلفون من النجاة بصعوبة كبيرة خاصة بعد مقتل حصانه أثناء محاولة الهرب، حيث دخل مدينة باري سيرا على الأقدام بعد عناء كبير، هذه الهزيمة التي نجح خلفون في الانتقام لها بعد مدة يسيرة (أماري، 2003 : 422)، أما عن طبيعة خلفون فيعتقد بأنه قد نهج نهجا انفصاليا تجاه السلطة الأغلبية (الطالبي، 1995 : 519)، وبأنه لم يكن له ولاء لأحد فالواضح أنه كان قائدا مسلما جريئا من البربر له مجموعة من الأتباع يعمل لصالحه الخاص، ولا يتلقى الأوامر من أي جهة.

تمكن خلفون من التوسع على حساب عدد من المناطق المجاورة لباري، وفرض سيطرته على مدينة بنفنتو اللومباردية، التي بقيت خاضعة للنفوذ الإسلامي مدة خمس سنوات ما بين (842-847م) (طرخان، 1966 : 215)، وقد واجه خلفون خلال فترة حكمه عديد الهجمات الرامية للقضاء عليه، من ذلك حملة سيكونولفو على بنفنتو وما نتج عنها من مذابح مروعة (أماري، 2003 : 423)، كما خاضت الكنيسة بنفسها حملات للقضاء على النفوذ الإسلامي في باري وفي المناطق المجاورة لها، قاد هذه الجهود البابا ليو الرابع بنفسه، وكان من نتائجها تحقيق النصر في أوستيا غير أنها لم تتمكن من السيطرة على باري ذاتها، وقد استمر حكم خلفون مدة خمس سنوات وخمس أشهر (3-2 : Golvin, 1991) عمل خلالها على ترسيخ دولته بالمنطقة، ومواجهة كل الجهود الرامية للتخلص منه، كما عمد إلى تدعيم كل المدن والمناطق التي أخضعها لحكمه بحاميات للدفاع عنها، يبدو

أنّ قوامها وقوام فرقه العسكرية كان من البربر ومن عرب إفريقية الذين كانوا نواة الدفاع عن باري (أمّاري، 2003 : 424)، وهكذا يتضح أنّ مدينة باري وما جاورها وبفعل التكالب المسيحي على خلفون ونفوذه لم يهدأ لها بال طيلة هذه المدة.

- مفرج بن سلام (232-247هـ / 847 - 861م): يُعتبر ثاني حاكم لهذه الدولة، ورد إسمه في بعض الكتابات المفرخ بن سلام (البلاذري، 1987 : 328)، يُشير أمّوري إلى أنه اغتصب الإمارة (أمّاري، 2003 : 432)، تزامنت فترة حكمه مع زمن خلافة المتوكل (232-247هـ / 847-861م) (طرخان، 1966 : 215)، ومن مدينة باري حارب الإمارات الإيطالية المحيطة به وعمد إلى توسيع ممتلكاته على حسابها، واتخذ من إمارة نابولي حليفا له بالمنطقة، تميّز عهده بقوة الأسطول الذي نجح من خلاله في مقارعة أساطيل الروم الساعية لدحره والتخلص منه، ومن المناطق التي نجح في إحكام سيطرته عليها، مدن أوترنت Otrente، وكالياري Carigliari والتي خلّف بها جالية إسلامية، لضمان ولائها ولل قضاء على أي محاولة رامية للتمرد ضدّ المسلمين، كما ضرب حصارا على مدينة كابو Capoue غير أنه لم ينجح في فتحها، وهكذا حكم مفرج بن سلام أغلب المدن المحيطة بباري والواقعة في الجنوب الإيطالي (المدني، 1978 : 72).

كما نجح في فتح أربعة وعشرين حصنا وسيطر عليها (ابن الأثير، 1987 : 67)، ومدّ نفوذه إلى أشهر مناطق بوليا (طرخان، 1966 : 215)، ومن خلال ما قام به من فتوحات نستنتج أنه كان دائما رافعا لراية الجهاد، وأنه طيلة فترة حكمه كان في حالة حرب، خاصة وأنّه كان مُحاط بالإمارات المسيحية من كل جانب والتي سعت للتخلص منه والقضاء عليه، وعليه يُمكننا القول بأنّ فترة حكمه لم تشهد إستقرارا ملموسا.

وعلى الرغم من ذلك فإنّ المصادر تذكر له عددا من المنجزات الرامية لترسيخ الإسلام بالمنطقة، فعمد لإنشاء مسجد جامع في باري (البلاذري، 1987 : 328)، تقام فيه الصلاة ويجتمع فيه المسلمون وليكون نواة لتعليم القرآن واللغة العربية ومختلف علوم الدين، كما أعلن سنة 238هـ / 853م، انفصاله عن أمير صقلية وعن حكم الأغلبية نهائيا، واتخذ لنفسه لقب السلطان، والذي كان قليل الإستعمال لدى المسلمين آنذاك (المدني، 1978 : 72، 149) وسعى للحصول على رضا ومباركة الخليفة العباسي والإعتراف منه مباشرة، من خلال مراسلته وإعلان ولائه وطاعته والتبعية له وبالتالي الحصول على الشرعية لحكمه، لذلك راسل صاحب البريد بمصر « يُعلمه خبره، وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحيته ويوليّه إياها ليخرج من حد المتغلبين » (ابن الأثير، 1987 : 67).

وقد وُصف مفرج بن سلام وأتباعه في المراجع والحواليات المسيحية بأبشع الصفات، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى تلك الهزائم الكبيرة التي ألحقها بعسكرهم والغارات الكثيرة التي شتّها ضد مدنها، حيث أنه وصل بهجوماته إلى أراضي سالرنو ونابولي، وأجبر حكام ولاية بنفنتو على دفع الجزية وتقديم الرهائن له، أما المناطق التي استعصت عليه فقد ارتكب فيها مجازر كبيرة حيث ذكروا بأنه : « كان يجلس على أكوام من الجثث وهو يأكل بينها بأسلوب مقزز » كما كان يحصل على الكثير من الغنائم جراء حروبه وغزواته، تتمثل أحيانا في عربات مملوءة بالذهب والفضة وجحافل من الأسرى والمواشي، وبسبب هذا نقم عليه خصومه وسعوا للتخلص منه،

ف نجد أنه تعرض لعدد من الكمائن، والتي كان ينتقم لها بطرق قاسية، هذا وتعرضت مدينة باري على عهده لعدد الهجمات من القوى المسيحية بغرض إستردادها ودحر المسلمين عنها، من ذلك تلك المحاولة التي وقعت حوالي سنة 238هـ/ 852م ، في أعقاب قيام رهبان دير كاسان بتحريض الناس ضدهم ودعوة الإمبراطور لمحاربتهم، والذي لبّى نداء الرهبان وشنّ حملة ضد المسلمين بباري نجح من خلالها في إلحاق هزيمة معتبرة بهم، غير أنه لم ينجح في إحتلال المدينة⁵.

مما عرفته هذه الإمارة على عهد حاكمها الثاني، هو قُدرتها الكبيرة على استجماع قواها في أعقاب كل هزيمة تلحق بها، وهو ما جعلها دائما قادرة على مجابهة القوى المعادية، ولا شك أنّ هذا الأمر مرده الأساسي إلى كثرة المغامرين والمجاهدين المرتزقة المتواجدين على البر الإيطالي، والذين وجدوا في هذه الإمارة ملجأ ملائما لهم خاصة وأنها كانت كثرة الغزوات وبالتالي كثرة الحصول على الغنائم والمداخيل، مما يُبني طموحات هؤلاء المغامرين ويُشبع رغباتهم وأطماعهم.

بالنسبة لأصول المفرج ابن سلام يبدو أنه من أهل جزيرة كريت (طرخان، 1966 : 216)، استمر حكمه حوالي أربعة عشر سنة، أذاق خلالها الإيطاليين الويلات وألحق بهم الكثير من النكسات، حتى اعتبر أماري بأنّ الخزي الذي لحق بإيطاليا خلال هذه المدة، لم تشهده طيلة فترات تاريخها منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية، فإنقسام الإيطاليين إلى ما يزيد عن مائة دويلة وسلطنة صغيرة متناحرة فيما بينها (أماري، 2003 : 435-436) جعلها تقف عاجزة عن طرد سلطان باري، ذلك أنّ مفرج بن سلام فعلا شكّل شوكة في حلق الإيطاليين الذين لم يتخلصوا من نفوذه وسطوته، إلّا في أعقاب تمرد عدد من أصحابه وقيامهم بإغتياله (البلاذري، 1987 : 328).

- سوران (247-257هـ/ 861-871م): ثالث حاكم من أمراء هذه الإمارة حكم في أعقاب اغتيال مفرج بن سلام، هناك اختلاف بين المراجع في إسمه وأصله، ورد في بعضها بإسم سوران وبأنّ أصوله ترجع إلى جزيرة كريت (طرخان، 1966 : 216)، وورد في بعضها الآخر بإسم سودان، وبأنّ أصوله بربرية، وهذا هو الطرح الذي أورده Golvin في الموسوعة البربرية (3 : 1991، Golvin)، أما في المصادر على غرار البلاذري فإنه أورد بأنّ إسمه سوران وجاءت كذلك سودان غير أنه لم يذكر عن أصله شيئا (البلاذري، 1987 : 328)، كما ذكرته مراجع أخرى تحت إسم الأمير سمران (كرد، 2017 : 241)، أوردت المصادر أنّه كان مُتقد الذكاء وكان سياسيا بارعا ومُتحدثا جيدا، لطالما انبهر به الأمراء المسيحيين وبمستوى وعي وثقافة المحيطين به ورجاله المقربين (أماري، 2003 : 441-442).

ولأنّ المعلومات حول هذه الإمارة شحيحة فإنّ هناك من الباحثين من كتب عنها غير أنه أخطأ في بعض الأمور أو اضطر لتجاوز بعض النقاط، فنجد بأنّ أحمد توفيق المدني في كتابه المعنون بالمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، والذي كتب فيه عن هذه الإمارة لم يذكر مطلقا الحاكم الثالث، ونحى في كتابته نحواً يوحي بأنّ لهذه الإمارة حاكمان وأنها سقطت على عهد مفرج بن سلام (المدني، 1978 : 149-150).

⁵ - اورد البعض أنّ الحملة المذكورة وقعت سنة 852م في حين ذكر آخرون أنها حدثت سنة 853م، للمزيد عن هذه التفاصيل أنظر (مايكل أماوري: المرجع السابق، مج 1، ص- ص 433-434؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 148).

وبسبب قلة المعلومات وصعوبة الوصول إليها نجد أنّ هناك تضارب حتى في سنوات حكم سوران ومفرج بن سلام، إذ ورد في الموسوعة البربرية أنّ بدايات حكم سوران ترجع إلى سنة 856م (3 : Golvin, 1991)، لكن الأرجح أنها تبدأ مع سنة 861م وهي السنة التي على الغالب أٌغتيل فيها مفرج بن سلام، خطأ آخر يجب أن نشير إليه ورد في الموسوعة البربرية، حيث أوردت بعض الأحداث التي كانت وقعت على عهد مفرج بن سلام على أساس أنها حدثت في فترة حكم سوران، من ذلك تلك المتعلقة ببطشه الشديد وعنفه ضد الإيطاليين حتى أورد بعضهم أنّه كان في اليوم يقتل خمسمئة نفس أو ما يزيد ووصفته بأبشع الاوصاف (أماري، 2003: 433)، إذن هذه بعض الملاحظات التي يجب التنويه إليها في تاريخ هذه الإمارة حتى تكون لدراستنا منطلقات سليمة.

وبالعودة إلى فترة حكم سوران فإنّ أول ما فعله في أعقاب توليه السلطة هو سعيه للحصول على الشرعية من الخلافة لحكم إمارة باري بإسمها، وهذا حتى يكون حكمه شرعياً ولا ينازعه فيه أحد من المنافسين والخصوم، وعليه مثلما أورد البلاذري فقد : «وَجّه رسوله إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقدا وكتاب ولاية، فتوفي قبل أن ينصرف رسوله إليه وتوفي المنتصر بالله، وكانت خلافته ستة أشهر، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله، فأمر عامله على المغرب، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين بأن يعقد له على ناحيته فلم يشخص رسوله من سرّ من رأى حتى قُتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين فعقد له وأنفذه » (البلاذري، 1987 : 329).

ومما يُفهم من كلام البلاذري أنّ سوران راسل المتوكل للحصول على عقد الولاية والذي توفي وخلفه بدوره المنتصر بالله الذي حكم ستة أشهر ثم توفي، وبالتالي لم يصله عقد الولاية إلّا في عهد المستعين بالله، وهكذا نجح سوران في المسعى الذي كان سبقه إليه مفرج بن سلام وفشل فيه، وهو الحصول لحكمه على غطاء شرعي وقانوني يستند إليه.

شهد عهده إصراراً مسيحياً وتحالفات كبرى في سبيل القضاء على إمارته والتخلص نهائياً من سطوته، لذلك فقد اصطدم بالمسيحيين مرار وتكراراً في معارك برية وبحرية، وتبادل مع خصومه النصر والهزيمة إلى أن نجح المسيحيون أخيراً في حصاره لمدة أربع سنوات كاملة، كانت نهايتها مأساوية عليه وعلى إمارته.

4. سقوط إمارة باري 08 ربيع الأول 257هـ / 02 فيفري 871م:

بسبب التفرق والتشرذم الذي كان يعرفه الجنوب الإيطالي وإيطاليا ككل، لم تنجح كل المحاولات الرامية إلى التخلص من النفوذ الإسلامي في باري، إلى غاية تدخل الإمبراطور البيزنطي فيما بين سنتي 866-867م، وعزمه على تخليص باري من حكم المسلمين، خاصة في أعقاب سيطرة المسلمين على دير كاسان الذي طالما ظلّ مناوئاً لنفوذهم، وفي هذا الدير مثلما أورد المسيحيون وكتعبير عن غبطته كان السلطان يتطيب ببخور الرهبان ويلهو بالشراب في أباريقهم، وعليه فإنّ الإمبراطور أصدر مرسوماً دعا فيه جميع الرعايا الإيطاليين للخدمة العسكرية، كما حصل على الجنود والتعزيزات الحربية من مدن الجوار الهامة واصطدم بجيوشه مع المسلمين ونجح في دحرهم وإجبارهم للتراجع نحو باري، غير أنه لم يتمكن من القضاء عليهم بسبب إعتمادهم وإجادتهم لحرب المجموعات الصغيرة والتي أثبتت فعاليتها في كثير من محطات الصراع بين الطرفين (أماري، 2003 : 436-437).

وبعد تراجعهم تحصّن المسلمون في مدينتي باري وطارنطة اللتين عجز أول الأمر الإمبراطور وجيوشه عن حصارهما بسبب تحصينهما الجيد (المدني، 1978 : 149)، غير أنّ هذا الأمر لم يثن المسيحيين عن عزمهم، فبعد انسحابهم في شهر ديسمبر من سنة 867م، عادوا في السنة الموالية وعمدوا إلى إحراق وإتلاف المحاصيل الزراعية بالأرياف المجاورة للمدينتين اللتين تحصّن بهما المسلمون، وبتطبيق سياسة الأرض المحروقة وقطع كل الإمدادات والتموين المتوجه نحو باري، والتضييق والحصار الذي فرض على المدينة برا وبحرا لمدة أربع سنوات متتالية، نجح المسيحيون في التقدم شيئا فشيئا على الأرض، وزادوا من شدّة الحصار وعمدوا إلى دكّ الأسوار بالضربات مما ساهم في إضعافها، ومع ذلك فقد نجح سلطان المدينة وقواته في توجيه الضربات الخاطفة لجيوش الأعداء بين الفينة والأخرى وحاولوا الصمود قدر الإمكان، كما نجحوا أحيانا في أسر بعض الجنود والخيالة من المحاصرين للمدينة، وفي أعقاب نزول الأسطول البيزنطي المدّعم بتعزيزات من السلاف والكروات على أرض باري، بالإضافة إلى زحف المقاتلين البيزنطيين (أماري، 2003 : 438-441)، الذين تحالف مع دولتهم الملك الكارولنجي لويس الثاني الذي كان بدوره له أطمع توسعية واضحة في الجنوب الإيطالي (عزيز، 1980 : 27)، نجح الجيش المسيحي في دخول باري واجتياحها في يوم 02 فيفري 871م (أماري، 2003 : 438)، وإنهاء فترة السيطرة الإسلامية على المدينة والمنطقة الجنوبية من إيطاليا، والتي دامت حوالي 30 سنة من 841م إلى غاية 871م.

وفي الوقت الذي انهزم فيه المسلمون بباري بعد أن هدّهم الجوع والحصار، كان نظرائهم في صقلية بقيادة أميرها وعامل الأغلبة عليها العباس بن الفضل يُحققون انتصارات متتالية ضد الإمارات المسيحية على شاكلة نابولي وكابو وغيرهما (المدني، 1978 : 150-151)، مما يُحيلنا إلى إدراك أنه كان بإمكانهم دعم مسلمي باري ومُساندتهم وكسر الحصار المفروض عليهم، خاصة في ظل صُمودهم ومقاومتهم إلّا أنّ هذا لم يحدث، ويبدو أنّه لم يكن بإمكان سوران وإمارة باري التعويل على أي سند أو دعم إسلامي قادم من خلف مضيق مسينا الضيق الفاصل بين صقلية وجنوب إيطاليا، وهذا منذ أن أعلنوا وجاهروا بعدم تبعيتهم للأغلبة وانفصالهم عنهم ومساعدتهم للحصول على رضا ومباركة الخلافة لحكمهم، وبالتالي فقد أدركوا أنه لن يواجه معهم مصيرهم أحد، وفي ظل كل هذه المُعطيات يُمكننا أن نقول بأنّ الأغلبة رُبما لم يأسفوا لسقوط هذه الإمارة.

واتّضح مدى حقد المسيحيين ضد مسلمي باري بشكل جلي من خلال تلك المذابح المروعة المرتكبة ضدهم، خاصة وأنّ الإمبراطور البيزنطي كان قد أقسم بقتل كل مسلم بالمدينة، ويبدو أنه لم ينبج من هذه المذبحة إلّا القلة القليلة من جنود باري ومنهم السلطان الذي تحصّن داخل أحد الأبراج ولم يستسلم إلّا لأمير بنفنتو، والذي وصلت يوما ما ابنته أسيرة لدى سلطان باري، فحماها وأكرمها وعاملها كإحدى بناته، حيث كان يُدرك أنّ أمير بنفنتو سيراقي فضله هذا ولن يقتله، وعليه فقد تمّ سجنه مدة ظلّ فيها الحزن والكسر باديا على مُحياء (أماري، 2003 : 440-441).

5. ملامح عن التنظيم الإداري في إمارة باري الإسلامية:

الواقع أنه ليس لدينا المعلومات الكافية التي تسمح لنا برسم صورة واضحة عن طبيعة النظام الإداري وسيرورته، غير أنّ ثمة إشارات يمكن أن نستفيد منها في هذا الأمر، ويُمكن أن نستثمرها لتجلية بعض غوامضه:

بالنسبة للنظام السياسي الواضح أنه ليس وراثيا مثلما جرت عليه العادة في مختلف الأنظمة الإسلامية التي ظهرت آنذاك، فلا وجود لأسرة جمعت بينها رابطة الدم حكم أبنائها الإمارة تباعا، والأرجح أنّ الحاكم الأول خلفون كان بربريا غير أنه لا يُمكننا الجزم من أي قبائل البربر هو، والذي خلفه الأرجح أنه من جزيرة كريت سواء تعلق الأمر بالأمير الثاني مفرج بن سلام أو الأمير الثالث سوران، وعليه فالولاء في هذه الإمارة لم يكن للأسرة بقدر ما كان للقوة، وللذي يمتلك الأتباع والأنصار أكثر وسط المحاربين والجنود، فالحكم كان للمتغلب في حال شغور منصب الإمارة، وهذا التقليد حمل Golvin على اعتبار باري إمارة بربرية ظهرت في القرن التاسع ميلادي، من مُنطلق أنّ نظام تعيين الحاكم كان عبر اختيار أو انتخاب شخص قوي من قبل المحاربين، وهذه العادة قديمة لدى البربر ومن المناطق التي عرفت هذا النوع من الإنتخاب تاهرت (4 : 1991, Golvin)، غير أنّ ما ذهب إليه قد يكون مجانباً للصواب من مُنطلقات عدة أولها أنّ الحكام الثلاث تختلف أصولهم، وثانها أنّ قضية إختيار الأقوى للحكم يُمكن أن تُوجد كذلك في مختلف الأزمنة والأمكنة وفي أي تنظيم.

غير أنّ ما لا يمكن إنكاره هو أنّ النزعة البربرية أو بالأحرى مساعي البربر للتعبير عن شخصيتهم وإرضاء نزعتهم القومية، من خلال السعي للاستقلال عن النفوذ العباسي قد بدا واضحا خلال تلك الحقبة، حتى أنّ هناك من المؤرخين من ذهب بعيدا في هذه القضية واعتبر أنّ قيام دولة الأغالبة بإفريقية هو تعبير عن شخصية المغاربة وترويج لنضالهم ومساعدتهم للتخلص من التبعية للمشاركة عموما والعباسيين خصوصا (إسماعيل، 2000 : 38)، ولا يهم إن اتفقنا جزئيا أو اختلفنا مع هذا الرأي، لكن ما لا يمكن إنكاره هو أنّ النزعة القومية البربرية آنذاك كانت في تصاعد.

بالنسبة للتنظيم الإداري تبقى ملامحه غير واضحة، غير أنّه يُمكن الجزم بأنّ الحاشية أو المقربين من الحاكم، أو من يُمكن أن نسميهم بالمستشارين قد كانوا على مستوى كبير من الثقافة والإطلاع والتحضر (أماري، 2003 : 421)، في الجانب الإداري كذلك من خلال ما أورده البلاذري عن مراسلة كل من خلفون وسوران من بعده الخليفة في المشرق، على أمل الحصول على تزكيته لحكم المناطق التي سيطروا عليها (البلاذري، 1987 : 329)، فإنّه يُمكننا القول أنّه كان لديهم تنظيم معين للبريد والرسائل وإن كنا لا نمتلك المعلومات اللازمة عنه، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فبحكم علاقاتهم مع ممالك الجوار سواء تلك التي كانت على وفاق أو على خلاف معهم، فإنّ الواقع يتطلب وجود هذا النوع من الأجهزة الإدارية كضرورة.

كما يُمكننا أن نستشف من بعض الروايات وجود سفراء للإمارة، كان الحكام يُرسلونهم لممالك الجوار بين الفينة والأخرى لمعالجة الأزمات الطارئة، أو للتفاوض حول بعض القضايا العالقة، على غرار تلك السفارة التي أرسلها سوران أثناء فترة حكمه لأمير سالرنو لخوض مفاوضات تتعلق بالجانب السياسي بين الإماراتين، والتي على إثرها قام أمير سالرنو بتكريم سفراء باري، حتى أنه أسكنهم بعض بيوت الأساقفة هذا الأمر الذي أثار حفيظة البابا نفسه (أماري، 2003 : 435-436)، ومما ينبغي الاعتراف به أنّ النظام الإداري لهذه الإمارة يبقى غامضا وبحاجة لمزيد من البحث والتنقيب، حاله كحال تاريخ هذه الإمارة ككل.

فيما يتعلق بالجانب الديني فالأكيد أنّ الإمارة تواجد بها اتباع الديانات الثلاث، المسيحية فالكنايس منتشرة بالإمارة وحولها، الإسلام ذلك أنّ المدينة تم فتحها وتشييد مسجد جامع بها التقى فيه المسلمون وتدارسوا أمور دينهم ودنياهم، واليهودية كذلك حيث ورد في بعض الوثائق والمذكرات إشارات إلى تواجد اليهود بالإمارة ونشاطهم الكبير خاصة في بعض الجوانب الاقتصادية (4 : Golvin, 1991)، كما أنّ الأراضي الإيطالية لطالما كانت تعج باليهود، هذا واشتهر حكام الإمارة بالتسامح مع أتباع المعتقدات الأخرى، ومن مظاهر ذلك تلك التسهيلات التي لقيها من قبلهم الحجيج المسيحيين الراغبين في التوجه إلى فلسطين ومناطقها المقدسة، فكانوا يُيسرون للحجيج الحصول على السفن، ويحرصون على سهولة مرورهم وسلامتهم عبر مختلف البلاد التي يجتازونها وصولاً إلى فلسطين، حتى أنّ سلطان باري بنفسه كان يُزودهم بجوازات خاصة تُيسر لهم الأمور في مصر (أرشيبالد، د- ت : 275).

فيما يتعلق بالجانب المذهبي لهذه الإمارة فيمكننا الجزم على أنّ أمرائها وأتباعها كانوا على المذهب السني وذلك استناداً إلى تلك المراسلات التي قام بها كل من مفرج بن سلام ومن بعده سوران إلى الخليفة العباسي، والتي من خلالها سعوا إلى كسب رضاه وتحصيل الشرعية لحكم المناطق التي سيطروا عليها، نقول هذا لأنه خلال تلك الفترة كانت مختلف البلاد الإسلامية تموج بأتباع المذاهب والفرق المتنوعة والمتصارعة مع بعضها البعض على شاكلة الشيعة والخوارج، وهذه المذاهب والفرق كان أتباعها في حالة صدام دائم مع الخلافة في عدد من المناطق، وعليه فلو أنّ هذه الإمارة لم تكن على المذهب السني فإنّ أمرائها ما كانوا ليتحملوا عناء الإتصال بالخليفة، وربما لما بحثوا عن رضاه أصلاً.

1.5 الجانب الاقتصادي:

يُمكننا القول أنّ إمارة باري على عهد الحكم الإسلامي قد كانت نشطة اقتصادياً وفي مجالات مُتعددة، بحيث تنوعت مصادر دخلها وثروتها، ففي البداية كانت مداخيلها هو ما تُحصّله كمقابل لتلك الخدمات التي قدّمها هذه القوات الوافدة على الجنوب الإيطالي لبعض الزعماء المحليين المُتصارعين هناك، فعندما كانت تحارب قوات خلفون مع رادليكي ضد غريمه سيكونولفو تحصل القائد البربري وقواته على مقابل مُتفق عليه مُسبقاً، وأحد أهم مصادر دخلها كذلك هي الغنائم المُحصّلة جراء غزو قواتها وغاراتها على المدن والمناطق المجاورة لها خاصة من تلك الغنائم الثمينة التي كان يتم تحصيلها من نهب كنوز الكنائس المختلفة، كما اضطرت بعض الإمارات الإيطالية إلى دفع الجزية وتسليم الرهائن لحكام باري المسلمين، في أعقاب عجزهم عن التصدي لحملاتهم المتتالية، مثلما فعلت إمارة بنفنتو، كل هذا ساهم في مداخيل الإمارة غير أنّ هذه المداخيل لم تكن قارة ولا ثابتة، ولا يُمكن التعويل عليها واعتبارها القوام الأساسي لاقتصاد الإمارة.

وبغض النظر عن تلك الصورة السوداوية التي رسمها المؤرخ البلجيكي "هنري بيرين" عن التواجد الإسلامي على مسرح البحر المتوسط، والذي وصفه بأنّه أصبح وبفعل السيطرة المباشرة للمسلمين على سواحله الشرقية وحتى الغربية، يُعيق التواصل بين مختلف الشعوب عكس ما كان عليه الحال قبل تواجدهم (بيرين، 1996 : 10)، هذا التواجد الذي تسبب حسبه في تراجع الحركة التجارية بالمتوسط وقطع العلاقات التجارية بين الشرق

والغرب (Pirenne, 1959 : 236)، فإنّ ما ينبغي التنبيه إليه أنه وعلى الرغم من الصراعات المُستعرة بالجنوب الإيطالي إلا أنّ التجارة ظلّت مزدهرة وبقي العمل بالإتفاقيات التجارية جارياً ومُحترماً (أماري، 2003 : 444)، أي أنّ التواصل بين الشعوب المُتجاورة ظلّ نشيطاً، فبحكم موقعها الاستراتيجي والذي يُعتبر همزة وصل بين الكثير من المناطق، والذي سمح لها ولغيرها من موانئ إيطاليا الجنوبية بالتحكم في البحر الأدرياتيكي ومداخله (طرخان، 1966 : 215)، فإنّ التجارة بباري استمر نشاطها الأمر الذي فتح لها باب تحقيق الفوائد والمكاسب المُعتبرة، دون أن تُغفل تلك المداخل الناتجة عن فرض ضرائب العبور على السلع التي ينقلها التجار عبر مينائها أو من خلال أراضيها.

هذا وقد ذكر بعض الرسل والسفراء والرحالة الذين كانت لهم زيارات عبر موانئ وأراضي إمارة باري، عن مشاهدتهم لسفن مليئة بالرقيق الأبيض وعددها ستة، تم توجيه إثنان منها نحو السواحل الإفريقية، كما تمّ توجيه سفينتين إلى بلاد الشام، وبلغ مجموع ما فيهما من عبيد حوالي ستة آلاف، الأرجح أنّ هذا الرقيق من الصقالبة الذين كانت تتم المتاجرة بهم في بلاد الأندلس، كما لا يُستبعد وجود عدد من أسرى الحروب بين هذا الرقيق، والأكد أنّ هذه السفن لا ترجع خالية الوفاض، بل تكون مُحملة بمختلف أنواع السلع التي تفتقر إليها هذه الإمارة على غرار العبيد السود والذهب والتوابل المتنوعة (Golvin, 1991 : 4- 5)، مما يُحيلنا إلى استمرارية العلاقات التجارية وحيويتها بين هذه الإمارة وجيرانها من المسلمين وغير المسلمين.

ومما تجب الإشارة إليه كذلك أنّ الصراع المُستعر بين هذه الإمارة وخُصومها من المسيحيين على الأراضي الإيطالية، فضلاً عن الصراعات البحرية بين مُختلف القوى الإسلامية وغير الإسلامية في حوض المتوسط آنذاك، وما صحب هذه النزاعات والحملات على المدن والقرى من أعمال نهب وأسر واسترقاق، كانت ولا ريب من العوامل الرئيسة لإزدهار تجارة الرقيق وحيويتها خلال تلك الحقبة.

أما الجانب الزراعي في هذه الإمارة فيُمكن وصفه بالمزدهر، ومردّد ذلك إلى عديد المُشتغلين في مجال الفلاحة، ما نتج عنه الكثير من الحقول والبساتين التي كانت تُحيط بمدينة باري ولواحقها (أماري، 2003 : 437)، ولا شك أنّ إنتاج هذه الحقول من مختلف أنواع الخضر والفواكه كبير جداً، خاصة وأنّ الجنوب الإيطالي معروف بظروفه المناخية الملائمة لحيوية النشاط الزراعي فضلاً عن خصوبة الأراضي بتلك النواحي، غير أنه يُمكننا الجزم أنّ كثرة الحروب والمعارك التي عرفها تاريخ مملكة باري قد أثر سلباً على الإنتاج الزراعي، خاصة في أواخر أيام الإمارة وفي أعقاب الحصار الذي ضربته المسيحيون عليها ودام مدة أربع سنوات، والذي كان من أساليبه هو إنتهاج سياسة الأرض المحروقة.

ويُمكننا أن نفترض أنّ قوام الثروة الزراعية بباري قد تشكّل من الحمضيات وأشجار الكروم والفواكه المتنوعة، بالإضافة إلى الحبوب ومختلف أنواع المواشي، ولا شك أنّ اليهود قد تخصصوا في الصيرفة ومختلف أنواع التجارة، وامتلكوا المتاجر الصغيرة والكبيرة كما كان منهم عدد مُعتبر من الباعة المُتجولين، خاصة في ظلّ اشتهارهم تاريخياً بمثل هذا النشاط في الأراضي الإيطالية كما في غيرها، فضلاً عن تلك التسهيلات التي كانوا

يتمتعون بها في تحركاتهم، ولأنّ المدينة ساحلية ولها أسطول كبير من السفن فلا شكّ أنّ نشاط صيد الأسماك بها كان مُعتبراً، خاصة وأنّ هذا النشاط الإقتصادي المهم تكاد لا تخلو منه أي مدينة تقع على ضفاف البحر.

أما المجتمع في إمارة باري فقد كان فسيفساء من الأعراق والأجناس وهذا راجع لعدد العوامل والمحطات التاريخية، التي جعلت من هذه المنطقة بوتقة لالتقاء هذا المزيج البشري حيث نجد فيها اللاتينيين، الإغريق، الفرنجة واللومبارديين، واليهود، والبربر (Golvin, 1991 : 4) الذين كان منهم الأمير خلفون، وبطبيعة الحال العرب والمغامرين من جزيرة كريت ومن مُختلف جزر المتوسط، فضلاً عن الصقالبة والزنوج الذين عانت شعوبهم كثيراً من الإسترقاق، وبسببه انتقلوا إلى مختلف الأصقاع والبقاع، بحيث تُورد بعض الإشارات ذكرهم في أراضي هذه الإمارة كما لا نستبعد تواجد عناصر بشرية أخرى بها.

وعلى الرغم من أنّ هذه الإمارة لم تُعمر كثيراً، إلا أنّ حُكمها يمثل مرحلة من مراحل الصراع الإسلامي المسيحي خلال فترة العصر الوسيط، هذا الصراع الذي كان حضارياً بالدرجة الأولى، ومن خلال هذه الإمارة نجح المسلمون في التوغل بالجنوب الإيطالي غير أنهم لم يمكثوا به كثيراً، فمدة ثلاثين سنة وإن لم تكن بالمدة الطويلة، إلا أنّ هذا لا يعني أنه يجب إغفال هذه الصفحة من التاريخ وتجاهلها، بحجة قلة المعلومات التاريخية حولها أو بحجة صعوبة تحصيلها.

خاتمة :

وفي ختام هذا العمل وكتحصيل لأبرز نتائجه فإنّه يُمكننا إجمالها في النقاط التالية.

أنّ التواجد الإسلامي الأغلب بصقلية وحُكم المسلمين لها مهّد الطريق أمام الفاتحين والغزاة والمغامرين لاجتياز مضيق مسينا نحو أراضي إيطاليا الجنوبية، وفي إطار المساعي الأغلبية لتثبيت النفوذ في الأراضي الصقلية كان لزاماً على المسلمين التخلص نهائياً من كل بؤر الخطر التي تتمثل في المراكز العسكرية والقواعد البحرية المتمركزة في صقلية وفي عدد من مدن إيطاليا الجنوبية.

كان من أهم نتائج الصدامات المُتعاقة بين المسلمين والمسيحيين بصقلية، أن وفد على أراضيها أعداد مُعتبرة من المغامرين والمجاهدين والمرتزقة، الذين نجحوا في الاستقرار ببعض أنحاء الجزيرة وإنشاء مُستوطنات ومراكز خاصة بهم، تميزت بنوع من الإستقلال.

خدم الصراع المسيحي - المسيحي في إمارة بنفنتو اللومباردية المسلمين كثيراً، خاصة في أعقاب استنجاد أحد طرفي النزاع والذي تزعمه "رادليكي"، بأحد أبرز القادة المسلمين المُتنفذين في صقلية ونعني هنا "خلفون البربري" الأمر الذي كان سبباً رئيسياً في نجاح التوغل الإسلامي بالجنوب الإيطالي.

كل هذه الأحداث والظروف خدمت القائد الجريء خلفون البربري وقواته وأسهمت في توسيع طموحاته وبحسن استغلاله لها نجح في غزو مدينة باري وبسط نفوذه عليها وإعلان استقلاله بها، وإنشاء إمارة إسلامية بالجنوب الإيطالي استمر تواجدها مدة ثلاثين سنة في بيئة عدائية.

تعاقب على حكم هذه الإمارة ثلاثة أمراء لم يجمع بينهم رابط الدم المشترك، تميزوا بالجرأة والشجاعة وبحروهم وغزواتهم المتعاقبة والمستمرة على الأراضي الإيطالية، الأمر الذي أمكنهم من إخضاع مناطق أخرى كما نجحوا في إجبار عدد من الإمارات المسيحية المجاورة لهم على دفع الجزية وتسليم الرهائن ضماناً لأنهم واستقرارهم، كانت لهم مساعي لترسيخ الإسلام والتمكين لشوكته بالجنوب الإيطالي.

عمل حكام هذه الإمارة الإسلامية على التخلص من أي تبعية وولاء للأغلبية وتأكيد انفصالهم عنهم، من خلال مساعيهم المتواصلة والحثيثة للحصول على إعراف من الخليفة العباسي بنفسه على شرعية حكمهم، وفي هذا الصدد كانت لهم مراسلتين مع الخلافة، وحتى وإن تأخر الرد فإنه جاء إيجابياً في النهاية.

لم يتقبل الإيطاليون فكرة تواجد كيان إسلامي في عمق أراضيهم مُطلقاً، الأمر الذي جعل من تاريخ هذه الإمارة سلسلة لا تنتهي من الحروب والصدامات البرية والبحرية على حد سواء، وفي سبيل القضاء عليها والتخلص منها أبرمت القوى والممالك المسيحية عديد التحالفات، إلا أنّ إمارة باري الإسلامية نجحت دوماً في كسر شوكتهم.

اضطرت النجاحات المتتالية لإمارة باري إلى تدخل كل من إمبراطور بيزنطا وملك الفرنجة "لويس الثاني"، وإنشاء حلف غرضه إستئصال شوكة هذه الإمارة الإسلامية بمساعدة أمراء الممالك المسيحية المختلفة، بل وفي سبيل هذا المسعى كان الإمبراطور البيزنطي قد أصدر مرسوماً دعا فيه جميع الرعايا الإيطاليين القادرين على حمل السلاح إلى خدمة العسكرية، وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات إلا أنّ إمارة باري نجحت في الصمود واستمرت في المقاومة إلى آخر رمق، حتى كان سقوطها في سنة 257هـ/871م هذا السقوط الذي تزامن وارتكاب مذابح مروعة ضد مسلمي المدينة، بسبب ما حمله المسيحيون من حقد وكراهية لمسلمي هذه الإمارة التي أذاقتهم عديد الهزائم والنكسات.

كما يجب التنبيه إنّ إمارة باري قد واجهت ذلك الحلف البيزنطي الفرنجي الكبير لوحدها ولم تلق أي دعم أو مساندة من مسلمي تلك النواحي خاصة السلطة الأغلبية التي كان نفوذها كبيراً في صقلية، فعلى الرغم من طول مدة الحصار وذلك الصمود الكبير الذي أظهره مسلموا باري، إلا أنهم واجهوا كل شيء لوحدهم، الأمر الذي نفهم من خلاله أنّ الأغلبية لم يُزعجهم البتة سقوط هذه الإمارة ولم يأسفوا لمآلها.

بالعودة إلى تنظيم هذه الإمارة في مختلف الجوانب نجد أنفسنا أمام عديد التساؤلات والنقاط المهمة، التي أساسها نقص أو انعدام أو قلة المعلومات حولها، والتي يبقى من واجبنا دراستها والسعي لاستجلاء غوامضها وتفسير مُبهمها ومعرفة ما تكتنزه من أسرار وما تُخفيه من خبايا، خاصة وأنّ هذه الإمارة لم تحظى بحقها من البحث، فحتى وإن كانت مدة تواجدها قليلة إلا أنّ هذا لا يعني إهمالها وعدم التطرق إلى دراستها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنّ هذه الدراسة كشفت لي بأنّ هناك عدة إمارات إسلامية أخرى قد ظهرت بالأراضي الإيطالية ولم يستمر وجودها طويلاً بسبب ذلك الصراع المُستعر ضد المسيحيين هناك، وعليه فإنّ باب الخوض في هذا المجال الخصب يُعتبر ضرورة ملحة ومجالاً خصباً.

الملاحق:

الملحق رقم 01: خريطة صقلية وجنوب إيطاليا. (عزيز، 1980 : 7)



الببليوغرافيا:

المصادر:

1. ابن الأثير، أبي الحسن علي. (1987). الكامل في التاريخ (ج 7). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن. (2000). تاريخ ابن خلدون (ج 4) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
3. ابن وردان، (1988). تاريخ مملكة الأغالبية. القاهرة، مصر: مكتبة مدبولي.
4. البلاذري، أحمد بن يحيى. (1987). فتوح البلدان. مؤسسة المعارف للطباعة والنشر.
5. المالكي، أبي بكر. عبد الله. (1994). رياض النفوس (ج 1) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
6. المراكشي، ابن عذارى. (د-ت). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ج 1)، لبنان: دار الثقافة بيروت.

الدراسة (المراجع والمقالات):

1. أرشيبالد، لويس. (د-ت). القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط (500-1100م)، ترجمة أحمد محمد عيسى القاهرة، مصر: مكتبة النهضة المصرية.

2. إسماعيل, محمود. (2000). الأغلبية (184-296 هـ) سياستهم الخارجية، (ط 3). عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
3. أماري, مايكلي. (2003). تاريخ مسلمي صقلية (مج 1). ترجمة محمد. سعد إبراهيم. وآخرون, مطبعة فلورنسة أي-مونية.
4. بيرين, هنري. (1996). تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية). ترجمة. عطية. القوصي, الهيئة المصرية العامة للكتاب.
5. الثعالبي, عبد. العزيز. (1990). تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية. (ط. 2) بيروت, لبنان: دار الغرب الإسلامي.
6. الطالبي, محمد. (1995). الدولة الأغلبية - التاريخ السياسي 184-296 هـ/ 800-909 م (ط 2) ترجمة. المنجي. الصيادي, بيروت, لبنان, دار الغرب الإسلامي.
7. طرخان, علي. إبراهيم. (1966). المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى. القاهرة, مصر: مؤسسة سجل العرب للنشر.
8. عزيز, أحمد. (1980). تاريخ صقلية الإسلامية. ترجمة, أمين توفيق. الطيبي, الدار العربية للكتاب.
9. كرد, محمد. علي. (2017). الإسلام والحضارة العربية. المملكة المتحدة بريطانيا: مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع.
10. المدني, أحمد. توفيق. (1978). المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا. الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.
11. مورينو, ماريو. مارتينو. (1968). المسلمون في صقلية (ط 2). بيروت, منشورات الجامعة اللبنانية.

باللغة الأجنبية:

1. Pirenne H.(1959) Mohammed and Charlemagne, Budapest. library of the central European university.
2. Golvin. L (1991). Bari (Emirat berbère du 9eme siècle), Encyclopédie berbère (En ligne) 9.